صلاح حافظ (١)

سأله مأمور سجن الواحات متهكما «متى ستنتصر الحياة»؟ تعقيبا على عموده الدائم «انتصار الحياة» فرد ضاحكا ها هى تنتصر ألسنا ننتصر الآن على الصحراء وعلى الثعابين التى تملأ المكان وعليكم وعلى من أرسلوكم.
(من حوار بين صلاح حافظ ومأمور سجن الواحات)

منذ أن كنت فى الثانوية تعلقت بالعمود الدائم الاستقرار على صفحات مجلة روزاليوسف واعتدت كل اسبوع أن احتفظ به وتراكمت كشاكيل عديدة ملصوق على كل صفحة منها «انتصار الحياة».. واكتشفت أننى لست وحدى، فقد كان العمود مبهرا فهو يتحدث بمعلومات عن علوم الطبيعة والتشريح والحشرات ثم يعجنها وبمهارة شديدة الرشاقة مع قضايا السياسة وهموم الحياة، وكنت كلما ابديت اعجابى بهذا العمود لاحت ابتسامة ماكرة على شفتى الرفيق المسئول. واكتشفت بعد فترة أنه كان يعرف أن صلاح رفيقنا لكنه طبعا ممنوع من البوح بمثل هذه المعلومة، من المدرسة الثانوية إلى الجامعة ومنها إلى السجن، وهناك التقيت مع صلاح وعشنا معا زمنا تعددت فيه اقاماتنا لكنها جميعا فى السجون.

صلاح الشاب دوما والمبتسم دوما والهادئ دوما حكى حكايته ونحن نتمشى فى ساعات الغروب فى سجن جناح بالوادى الجديد ثم أكملنا الحوارات بأخرى وهو رئيس تحرير مجلة روزاليوسف.

الأب تعلقت كل آماله وهو الموظف البسيط المقيم بالفيوم بأن يصبح صلاح طبيبا، والأب يلح ويواصل الإلحاح ، وصلاح يستجب ليس عن رغبة وإنما لمجرد الاستجابة لرغبة الأب. ويحصل بالفعل على مجموع كبير جدا فى امتحان التوجيهية (الثانوية العامة) ويدخل كلية الطب. ويدرس الطب بملل ويقول «كنت اتجرع علوم الطب كدواء مرير، لكننى

كنت كمريض يعرف أن الدواء مهما اشتدت مرارته فهو ضرورى ويتقبل أبى أخبار نجاحى المتفوق بارتياح يدفعنى إلى مقاومة نزعاتى الأخرى وهى كتابة القصص القصيرة والعمل الصحفى وحتى الغناء» ويصمت صلاح ثم يقول «الا تتفق معى أن صوتى جميل؟» وبالفعل كان صوته جميلا ومفعما بالحنان وبه أمتعنا فى أكثر الزنازين وحشة وظلمة ، ونشر صلاح أول قصة قصيرة ويتلقاها الأب بفزع وغضب وثار فى وجه صلاح وهدده. فدراسة الطب لا تحتمل شريكا آخر. هنا تمرد صلاح ورفض التوقف عن الكتابة ورفض الأب أن يرسل أى نقود.. وترك صلاح كلية الطب ليعمل فى معسكرات الانجليز بالتل الكبير وهناك التقى بفنان عاكسته حياة الموسيقى والالحان فعمل هو ايضا فى «الكامب» بالتل الكبير وهكذا امضى صلاح ليالى طويلة، وهو يستمع إلى عزف محمد الموجى على العود ويغنيان معا ويتقنان معا فنون الأداء، وبدأ كل منهما يبنى أحلامه المستقبلية فى غمار الموسيقى والعزف على العود والغناء. لكن الأب لا يمل من البحث عن ابنه ويمسك به متلبسا بالعمل كصنايعى فى الكامب الانجليزى. ولأن الأب قليلا فى المفاوضات مع الابن. وقال «إكتب قصصا ولكن واصل دراستك بتفوق فى كلية الطب. وفى الكلية من جديد تلاقى ثلاثة كل منهم يكتب القصة ويبحث عمن ينشرها «صلاح حافظ- يوسف إدريس- محمد يسرى أحمد». ويجيبنى صلاح عندما سألته من هو محمد يسرى أحمد؟ فيقول «كان الأفضل منا نحن الأثنين فى كتابة القصة القصيرة، كان كاتبا أكثر من رائع، لكننا ونحن نكتب القصة، ونبحث عن جريدة أو مجلة لنشرها عثرنا علي خيط دفعنا إلى منظمة حدتو ومع بداية الضغوط البوليسية على الشيوعيين. كان محمد قد تخرج وآثر السلامة وسافر إلى السودان». ويؤكد «كان أرقى موهبة منا وكانت قصصه رائعة فعلا، تفوق على وعلى يوسف إدريس بمراحل كثيرة، واعترفنا له بالزعامة، لكنه وفيما يبدو اطفأ شعلة الإبداع فى داخله بتخليه عن القضية، نحن أنا ويوسف صقلنا موهبتنا فى خضم نضال ثورى، فأنت لا تستطيع أن أن تصبح فنانا حقيقيا إذا لم تكن تدافع عن قضية».

وفى إحدى أمسيات سجن المحاريق (بالوادى الجديد أيضا) جلسنا فى زنزانة مغلقة جمعت صلاح وحسن فؤاد وعدداً من الرفاق وأنا منهم. وكان الجميع يعرفون أن الرسام حسن فؤاد هو الأب الروحى لقسم «الأدباء والفنانين» فى منظمة حدتو، وكنا نعرف أن عديداً من ألمع الأسماء التى سطعت فى سماء الكتابة الصحفية. والقصص والمسرح

والكاريكاتير والرسم التشكيلى قد عبرت طرق الفن وطريق النضال معا على يد حسن فؤاد. ويحكى حسن فؤاد وهو يضحك وصلاح حافظ يسبقه فى الضحك فى عام ١٩٤٨ كنت أعمل سكرتيرا لتحرير جريدة المسائية وكان رئيس التحرير كامل الشناوى ودخل شاب نحيل، متردد، خائف يحمل فى يده كومة أوراق ، وقال فى خجل أنا كاتب قصة ومعى عديد من القصص أريد نشرها، ولأن الصحف كانت تعانى من كثرة المترددين الراغبين فى نشر ما لا يستحق النشر، فقد قال كامل الشناوى لى شوف الواد ده عايز ايه». تأمل حسن فؤاد قصة فأعجبته والأخرى فأذهلته. وكان حسن فؤاد يمتلك الموهبة والرغبة فى اكتشاف كل من يمتلك قدرة على الإبداع وفى تنمية قدراته الإبداعية وفى فتح طريق النشر أمامه. فأمسك بالفتى النحيل ولم يتركه. ودفع به إلى ميدان الصحافة وظل يدفعه من جريدة لأخرى «النداء» ثم «القصة» ثم «روزاليوسف» حيث تألق عموده الرائع «انتصار الحياة» وظل صلاح محافظا على وعده لابيه يكتب ويتألق ويدرس وينجح مقتربا من أن يصبح طبيبا. لكن للحياة منطقها. فصلاح انتقل من خلية كلية الطب إلى قسم «الأدباء والفنانين» فى حدتو وهنا عاش مع كبار المبدعين فى مختلف المجالات.. وهناك ايضا مارس نضالا منحه الأمل فى نضال أكثر وأكثر.. وكان صلاح قد وصل إلى مرحلة البكالوريوس، يوسف إدريس تخرج ومحمد يسرى أحمد تخرج وسافر إلى السودان، وهو يجد نفسه وقد أصبح كاتبا مشهورا بفضل عموده الرائع وينغمس أكثر فأكثر فى الكتابة وأكثر كثيرا فى النضال السياسى لينزوى أمل أبيه.. لكن الأب يصمم والابن يماطل.. حتى تمضى الحياة كلها بالأب والحياة كلها بالابن دون أن يحصل على البكالوريوس . لكن الأب ظل مصمما حتى آخر نسمات الحياة بأمله. فهو يمطر ابنه فى سجن جناح ثم المحاريق برسائل بريدية والعنوان «الابن العزيز الطبيب والنطاسى البارع الدكتور صلاح حافظ» ويبتسم صلاح معتذرا لأبيه.

لكننا لم نزل فى ساحة صلاح حافظ فإلى لقاء معه.